نظام المفاهيم الأساسية للتعليم والتربية

في

فكر الإمام الخميني

الأستاذ حسن ملكي*



نطلق لفظ «النظام» على مجموعة العناصر التي انسجمت وتوحّدت فيما بينها لتحقيق هدف ما. فالنظام الفكري يعني مجموعة المفاهيم والأفكار التي توحدت فيما بينها في اتجاه معيّن.

ويتقوم النظام الفكري بمستويين معيّنين ومرتبطين ببعضهما؛ يصطلح على أحدهما : الرؤية الكونية، وعلى الآخر : الآيديولوجية. الأول، هو الأساس والبنية التحتية لعناصر الفكر الأخرى. والثاني، يشكل ما ينبغي ـ أو لا ينبغي ـ أن يكون، من الأمور المتصلة بإدارة الشؤون الحياتية.

فالآيديولوجية تنشأ من الرؤية الكونية. ولكلٍّ ما يرتبط بتوجيه وإدارة المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للفرد والمجتمع، أسّ في معرفة الإنسان والرؤية الكونية الخاصة.

والبعد التربوي أحد الأبعاد في حياة الإنسان. إذ يحتاج أفراد المجتمع لظروف وأوضاع مناسبة، لتنمية استعداداتهم وقابلياتهم واكتساب المهارات والخبرات المطلوبة ليتحوّلوا إلى أعضاء نافعين في المجتمع.. لكن، أيّ الخصائص والقابليات يجب زرعها وتقويتها في الأفراد؟ وبأيّ المناهج والطرق التربوية؟

في توضيح الإجابة عن هذين السؤالين نجد تفاوتاً بين المدارس وأصحاب الفكر والرأي. وذلك يعود إلى اختلاف النظر إلى ماهية الإنسان في الأنظمة الفكرية المختلفة. وبعبارة أخرى فإن الرؤية الكونية لكل مدرسة هي التي تحدّد اتّجاه وخصائص التعليم والتربية في تلك المدرسة.

---

* مسؤول المناهج والكتب الدراسية في وزارة التربية والتعليم.

فالمدرسة المادية تطرح التربية المادية. ومدرسة أصالة الإنسان تعرض التعليم والتربية العلمانية التي محورها الإنسان. والمدرسة الإلهية تقدم التعليم والتربية الإلهية. وبكلمة أخرى، فإن لكل مدرسة نظامها التعليمي والتربوي الخاص بها.

وبالرغم من اشتراك الأنظمة التعليمية والتربوية في بعض الجوانب ـ أحياناً ـ إلّا أن المحور الأساس لكل نظام يصطبغ بصبغة رؤيته الخاصة إلى الإنسان.

وثمّة موضوعات قيّمة في التعليم والتربية طُرحت في مناسبات مختلفة من قبل الإمام الخميني قدس‌سره مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران بصفته منظّراً ومؤسّساً للفكر الإسلامي ـ في القرن الحاضر ـ المستلهم من العقيدة الإسلامية.

وإذا نظرنا إليها (أي الموضوعات) كمجموعة واحدة وجدنا فيها وحدة وانسجاماً خاصاً، حيث لبعض العناصر خصيصة البنية التحتية فتندرج ضمن الرؤية الكونية ومعرفة الإنسان، وبعضها يرتبط بما ينبغي أو لا ينبغي أن يكون ـ تربوياً ـ فيدخل ضمن مستوى الآيديولوجية.

ويمكننا أن نلاحظ في الفكر التربوي لسماحة الإمام انسجاماً خاصاً بين العناصر والمفاهيم الأساسية للتعليم والتربية، أي بين معرفة الإنسان والاتجاه التربوي، والمفهوم التربوي، والهدف التربوي، ومحتوى الأصول التربوية، والمناهج التربوية، والنتائج والعوامل التربوية..

معرفة الإنسان

هناك عدد من النقاط التي يجدر أن تذكر في مجال نظرة الإمام إلى الإنسان، منها أنه يعتبر الإنسان خلاصة الوجود، إذ يقول:

«الإنسان هذا الموجود الذي هو خلاصة الخلق، له جوانب مختلفة وأبعاد مختلفة وشؤون مختلفة»[١].

ونقرأ له نصّاً بهذا الصدد:

«الإنسان موجود جامع، وليس موجوداً ذا بعد أو بعدين»[٢].

والخصيصة الأخرى في مجال معرفة الإنسان عند الإمام قدس‌سره هي الجوانب المعنوية للماهية الإنسانية. فما يصدر عن الإنسان في الظاهر، هو ظاهر وجوده. لكن البُعد المعنوي لوجود الإنسان بُعد مخفي أوجدته نفخة الروح الإلهية في الوجود الإنساني:

«الجانب الظاهري هو هذا الذي تشاهدونه وهذه الماديات المشهودة. والجانب المعنوي، جانب آخر في الإنسان، ما وراء هذا العالم»[٣].

كما أنه يرى الإنسان موجوداً واقعاً بين طرفين غير متناهيين، طرف هو البُعد الأرضي والمادي واللامتناهي، بمعنى أنه مهما تحرك في الجوانب المادية والغريزية ودنّس نفسه بالشهوات والأهواء، لم يزل بإمكانه الانغماس أكثر في الرغبات الحيوانية.

والطرف الآخر هو البعد الإلهي اللامتناهي أيضاً. فإذا تهيّأت الظروف التربوية المساعدة للإنسان، اكتسب من الصفات الإلهية وصار موجوداً إلهياً.

لنطالع النص الآتي :

«ليس هناك موجود مثل الإنسان، إنه أعجوبة يُصنع منها موجود إلهي ملكوتي، وكذلك موجود جهنمي شيطاني. والموجودات الأخرى ليست كذلك، ليست بحيث تكون الفجوة بهذا الشكل بين الفرد الكامل والفرد الجهنمي الناقص»[٤].

ماهية التربية

إن الإنسان في منظور الإمام، خلاصة الوجود الذي اجتمعت فيه كل صفات موجودات العالم. فهو يمتلك علاوة على الخصائص النباتية والحيوانية جانباً إلهياً ملكوتياً تفتقده الموجودات الأخرى. هذا البعد الإلهي ميّز الإنسان في كل الوجود. وعلى حدّ تعبير الإمام : «الأطفال حديثو عهد بالملكوت ونفوسهم أطهر»[٥].

فيجب إذن تربية هذه النفوس الطاهرة التي لها القدرة على اكتساب الفضائل والمحامد. والاستعدادات الذاتية للإنسان تقتضي ظروفاً وبيئة مساعدة لتبرز وتنمو.

من هنا يجد مفهوم التربية في الفكر التربوي للإمام قدس سره معنىً خاصاً وعميقاً، إذ يقول سماحته :

«إنّ التربية هي التي تفتّح الفطرة أو تحول دون تفتّحها، إن التربية هي التي تؤدّي بالبيئة إلى الكمال المطلوب في الإسلام، إنّ التربية (السيئة) أو التعليم دون التربية هما اللذان يجرّان البيئة إلى الفناء إذا أصبحت مقاليد الأمور وكل شيء على أساسها»[٦].

يبين الشكل التالي ارتباط المفاهيم الأساسية في نظام التعليم والتربية.

(كلية تصاعدية)
من الآيديولوجية إلى الرؤية الكونية

الرؤية الكونية
معرفة الإنسان
ماهية التربية
هدف التربية
محتوى التربية
أصول التربية
مناهج التربية
عوامل التربية
نتيجة التربية

من الرؤية الكونية والآيديولوجية
(تعيّن تنازلي)

لذلك يمكن القول: إن هدف التعليم والتربية لا يقتصر في منظور الإمام على إعداد الأفراد للحياة الاجتماعية، ولا على تأهيلهم لخوض غمار الحياة في الكبر ولا على تربية أحد أبعاد الشخصية الإنسانية، إنما التعليم والتربية عبارة عن جعل الفطرة الإنسانية تتفتح.

ولهذا المعنى للتربية ارتباط منطقي مع ماهية الإنسان التي بيّناها في البحث السابق. أي إن البعد المعنوي للإنسان وأبعاده الأخرى الكامنة في فطرته، تنمو بالتعليم والتربية.

الأهداف التربوية

للهدف دور أساس في الممارسة التربوية. فجميع البرامج والنشاطات التعليمية والتربوية تصوغ اتجاهها وتجد منطقها في ضوء الهدف المرسوم لها. وفي النظام التربوي يتحدد نوع الهدف وفقاً لنوع النظرة إلى الإنسان. والسبب في اختلاف الأهداف التعليمية والتربوية يرجع إلى اختلاف النظرة إلى الإنسان في المدارس المختلفة.

ففي الأنظمة التربوية البعيدة عن الوحي والتي لا تعترف بالبُعد الإلهي للإنسان تظل الأهداف التعليمية والتربوية محصورة في نطاق الأمور المادية والاجتماعية. فتبذل الجهود كي يلتزم أفراد المجتمع بالقوانين والسلوك الاجتماعي أو لتأهيلهم الحرفي.

لكن هذه الأمور لا يمكنها أن تمثّل هدفاً أساسياً وغاية تربوية للإنسان في منظار الفكر التربوي مع الأهمية الخاصة للتربية الاجتماعية والمهنية وضرورتها في الحياة الاجتماعية. لكن يجب أن يتحدد اتجاهها على أساس الهدف الغائي لتربية الإنسان الإلهي.

فالتربية الإلهية في فكر الإمام هدف تربوي أساسي:

«اعملوا على أن تربّوا أبناءكم تربية إلهية ولا تربّوهم تربية شيطانية»[٧].

إن هذا الهدف التربوي ناشئ من نظرة الإمام للإنسان. فلأنه يعتبر الإنسان موجوداً إلهياً، يعدّ التربية الإلهية هدفاً أساسياً.

ونلتقي معه في مقطع آخر يدعونا فيه إلى تهذيب أبنائنا. بمعنى أن تربية إنسان مهذب هي هدف آخر للتعليم والتربية في النظام الفكري للإمام. فالإنسان المهذب هو الإنسان الذي لا يرتكب الذنب ولا يلوّث وجوده بالانحراف والمعصية؛ لذلك صرح سماحته قائلاً:

«هذّبوا أطفالكم، اجعلوا أطفالكم إسلاميين»[٨].

والترابط بين هذا الهدف ونوعية النظرة إلى الإنسان واضحٌ. فللإنسان بُعد أرضي تنشأ منه الغرائز والأهواء والشهوات. وله بُعد معنوي ترتبط به التوجّهات الإلهية السامية. ويجب أن يقوم التعليم والتربية بتنمية البُعد المعنوي والإلهي وضبط الغرائز والأهواء والسيطرة عليها.

ويتطلّب تحقيق هذا الأمر اجتناب الذنوب ومجاهدة النفس. فالإنسان المهذَّب هو الذي يكافح الانحرافات والرذائل، ويصعّد استعداداته الفطرية العالية.

وبالإضافة إلى تأكيد الإمام لأهمية الأهداف

▣ الخصيصة الأخرى في مجال معرفة الإنسان عند الإمام تأكيده الجوانب المعنوية للماهية الإنسانية. فما يصدر عن الإنسان في الظاهر، هو ظاهر وجوده. لكن البُعد المعنوي لوجود الإنسان بُعد مخفي أوجدته نفخة الروح الإلهية في الوجود الإنساني.

التربوية، كان يشدد على ضرورة تثقيف الأطفال سياسياً وإيجاد الاستقلال الفكري وبناء الثقة بالنفس لديهم.

فمن البديهي أن الإنسان ما لم يكن مستقلاً فكرياً ويقطع التبعية للعوامل والقوى غير الإلهية، لا يمكنه الارتقاء في مدارج الكمال والعبودية للحق تعالى. فشرط العبودية للحق هو التحرر من العبودية لغير الحق.

محتوى التربية

من أجل تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية يجب تعليم الأفراد أموراً معيّنة. ونطلق على المادة التي نعلمها في سبيل الوصول إلى الهدف: «المحتوى».

فالمحتوى إذن هو المادة التي يتم تعليمها. وله ارتباط وانسجام مع الهدف. فلا يمكن بلوغ الهدف المطلوب بأيّ محتوى كان، كما هو الحال في التعليم الرسمي حيث تعتمد المواد الدراسية ذات المحتوى الذي يقود إلى تحقيق الأهداف.

وعندما نطالع الفكر التربوي للإمام الخميني نلاحظ أن غذاء الأفراد الفكري والتعليمي الذي يجيزه ويعتبره مناسباً هو الذي يصبّ في اتجاه الأهداف التي يؤكّدها.

وبصورة عامة فإن الإمام يقدّم معرفة الذات على معرفة الطبيعة. يقول قدس‌سره:

«إن نسيان الحق ـ تعالى ـ يقود بالضرورة إلى نسيان النفس»[٩].

ولهذا السبب كان رحمه‌الله يشدّد على وجوب مطالعة المعارف القرآنية للحصول على الوعي المطلوب. وبعبارة أخرى فإن المحتوى المناسب في منظار الإمام هو المحتوى المستفاد من الآيات الإلهية، فهو يقول:

«ولدي! طالع سورة الخضر المباركة إذ فيها كنوز من المعارف والتربية وتستحق أن يمضي الإنسان عمراً يتفكّر فيها ويتزوّد منها، بما يمدّه الله»[١٠].

وفي نصّ آخر يولي أهمية للعلوم الإسلامية والأخلاق، أكثر من غيرها من العلوم ويؤكد ضرورة تعلّمها؛ فيقول:

«من أرقى وأسمى العلوم التي يجب تعليمها وتعلّمها على الجميع، هي العلوم المعنوية الإسلامية من قبيل تعليم الأخلاق

وتهذيب النفس والسير والسلوك إلى الله»[١١].

ثَم مقطع آخر لسماحته جاء فيه :

«العلم وتهذيب النفس يوصلان الإنسان إلى مقام الإنسان»[١٢].

والإمام يشترط في علم الأخلاق أن يكون موجّهاً وذا صبغة إلهية، وإلّا لن يؤدي إلى النمو بل سيحول دون الكمال :

«قد يُدخل علمُ التوحيد الإنسان إلى جهنم، وهكذا علم العرفان، وقد يقود علم الفقه الإنسان إلى جهنم، وأحياناً ينتهي علم الأخلاق به إلى جهنم، فبالعلم وحده لا يتقوم الإنسان، بل التزكية هي المطلوبة»[١٣].

مبادئ التربية

المبادئ هي ما ينبغي أن يكون وما لا ينبغي أن يكون، والتي يستفاد منها لتحقيق الأهداف التعليمية والتربوية؛ لذلك تتناسب المبادئ في جميع الأنظمة التعليمية والتربوية مع الأهداف التعليمية والتربوية لكل نظام.

وفي الفكر التربوي للإمام الخميني قدس‌سره تنطلق المبادئ من المباني والأهداف المطروحة.

وبهذا الصدد نشير إلى ثلاثة مبادئ :

مبدأ تقدّم التزكية على التعليم

أوضحنا سابقاً أن بناء إنسان مهذَّب وتربيته هو الهدف الأساس للتعليم والتربية في النظام الفكري للإمام الخميني.

ولتربية إنسان كهذا يجب صياغة البرامج والنشاطات التربوية بشكل فيه تدرّج في تنقية أفكار أبناء المجتمع من الذنوب والانحرافات، فيلزم أن يتربى الأطفال والفتيان على تبعية الحق ومحاربة الشيطان، وإلّا فكل ما نعلِّمه للأفراد سينتهي بهم إلى الخسران.

مبدأ تقدّم إصلاح المربّي على المتربّي

إن مَن يأخذ على عاتقه مهمة إصلاح الآخر وتربيته يجب أن يبدأ بنفسه أولاً. ومن هنا تنشأ ضرورة عصمة الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم‌السلام.

فيجب أن تتجلّى الصفات الإنسانية في النبي المبعوث لإصلاح المجتمع وإقامة القيم الإلهية فيه. فإذا لم يتّصفوا بهذه الصفة ما وسعهم التأثير في أبناء المجتمع وإيجاد تيار في التاريخ يزهق في كل عصر جانباً من الرذائل، صانعاً مرحلة جديدة من الكمال في حركة المجتمع البشري.

والمعلم والمربي حيث يؤدّيان وظيفة النبي يجب عليهما إصلاح النفس وتربيتها قبل ممارسة المسؤولية. وفي غير هذه الحال لا يمكنهما التأثير في الآخرين. يقول قدس‌سره: «يكون للكلام تأثير عندما ينطلق من قلب نقي وطاهر»[١٤].

ويؤكد سماحته في مقطع آخر :

«إذا داس الإنسان الـ(أنا) لتصير (هو)، فقد أصلح كل شيء»[١٥].

مبدأ تأثير إرادة الفرد في التعليم والتربية

بالرغم من الدور المؤثر الذي يقوم به المربّي في تعليم الفرد وتربيته، إلّا أن للمربّي في ذلك دوراً ورسالة شديدي التأثير.

فالإرادة والاختيار، من الخصائص الإنسانية التي تمكن المرء من طيّ طريق الكمال. فإذا غاب من جانبه الدافع والسعي نحو بناء الذات، لم تثمر

البرامج التربوية للمعلّمين والمربّين.

ولهذا السبب تكرر في القرآن المجيد الخطاب الإلهي للإنسان نفسه فيما دعي إلى إصلاح نفسه وتربيتها. وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾.

فبالرغم من بعثة أنبياء كثيرين لتربية الناس ونزول كتب سماوية متعددة لتزكيتهم وتعليمهم، طالب الله تعالى الفرد بمراقبة نفسه والمحافظة على سلامتها واستقامتها.

بدوره شدّد الإمام ـ مستلهماً هذه الضرورات الإسلامية ـ في مناسبات مختلفة، على إرادة الفرد في التعليم والتربية.

وكنموذج على ذلك نشير إلى رسالة له إلى ولده سماحة السيد أحمد الخميني، كانت تدور حول اجتهاد الفرد وسعيه في تربية نفسه، كما في النص الآتي:

«يا ولدي! جاهد كي تسلّم القلب لله ولا ترى مؤثراً غيره»[١٦].

أو كما يقول سماحته:

«ابذل جهدك لتوصيل كلمة التوحيد ـ وهي أعظم كلمة وأسمى جملة ـ من عقلك إلى قلبك»[١٧].

وعلاوة على المبادئ المذكورة آنفاً، ثمة مبادئ أخرى لا نجد ضرورة لذكرها جميعاً في هذا المقال.

المناهج التربوية

وهي الجوانب العينية والعملية لمبادئ التعليم والتربية. ونشاهد في فكر الإمام مناهجَ لبناء الذات وتربية الآخرين تنسجم مع أهداف وأصول وعناصر التعليم والتربية في منظور سماحته.

ومن قبيل ذلك التكرار والتلقين؛ إذ يرى أن التكرار يرسّخ الخطاب التربوي في قلب المتربي.

وسبب تأثير التكرار في وجود الإنسان يتصل مباشرة بخصائصه، لأنّ الإنسان موجود ذو جانب مادي وطبيعي، فتحول الغرائز والشهوات دون ارتقائه مدارجَ الكمال ودون نمو استعداداته العالية. والتكرار يمنع الغرائز من السيطرة على العقل ولا يسمح بانفصال الإنسان عن فطرته. فيما يتعلق بالتكرار يقول الإمام الخميني:

«إذا أُردتم تربية الطفل فيجب قراءة الموضوع عدة مرات وبعدة أساليب وبعدة أوضاع، الموضوع واحد لكن طريقة بيانه يجب أن تتم بالشكل الذي يثبت في قلبه»[١٨].

والدعاء منهج آخر طرحه الإمام بالاستناد إلى المصادر الإسلامية، فهو يصرّح قائلاً: «هذه الأدعية تخرج الإنسان من الظلمة. وإذا خرج من الظلمة صار إنساناً يعمل لله...»[١٩].

ولمنهج الدعاء معنىً ـ أيضاً ـ في النظام الفكري للإمام. فللإنسان ـ وكما ذكرنا ـ بُعد إلهي يرتبط بواسطته بعالم ما وراء الطبيعة. والدعاء منهج يوصل الإنسان إلى ذلك العالم ليحييه الحق تعالى بعناياته وتوجهاته ـ في هذه الدنيا ـ حياة طيبة.

وكان لسماحة الإمام مناهج أخرى، مثل منهج المشاهدة، والتعقّل، وتكريم الأطفال، وتقديم الأسوة، وجميعها تتناسب مع بقية عناصر التعليم والتربية.

حصيلة التعليم والتربية

يعرف النظام التعليمي والتربوي من خلال النتيجة المترتبة على العمل به. ولمعرفة حقيقة التعليم والتربية في الإسلام ورؤية أبعادهما، يجب أن نضع نصب أعيننا الشخصيات التي تربّت بالتعليمات الإسلامية.

فعدّ أفراد من قبيل أبي ذرّ وسلمان والمقداد، شخصيات نموذجية وبارزة، يبرهن الخصائص والأسرار الموجودة في الدين الإسلامي المبين ويثبت أنه كتاب تشريعي يمنح الكتاب التكويني كل ما يتجلّى فيه من جمال وكمال.

إذا تأمّلنا في فكر الإمام نلاحظ عدداً من الشخصيات يكثر تكرارها في مؤلفاته وخطاباته مثل الشهيد آية الله مدرّس الذي أظهر سماحته حبّاً شديداً له في كتبه.

وسبب ذلك يعود إلى خصائص ذلك الشهيد الذي جمع إلى جوار جهاده العلمي، جهاد الطاغوت حيث وقف بكل شجاعة وبكامل وجوده في مواجهة الظلم والاستبداد. وبكلمة ثانية جَمَعَ العلم والتقوى والشجاعة معاً.

كذلك ذكر سماحة الإمام في خطابات مختلفة السيدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بصفتها قدوة لنساء العالم. فسماحته يرى في بنت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، الأسوة الأسمى والأكمل للمرأة المسلمة وفي كل الأبعاد.

ويطرح سماحته في أحد نصوصه «حسين فهميده» باعتباره إنساناً سامياً ومتربّياً، فيقول: «قائدنا هو ذلك الطفل ذو الاثني عشر ربيعاً، الذي رمى بنفسه ـ بقلبه الصغير الذي تزيد قيمته على مئات الكتابات والخطابات ـ مع قنبلته اليدوية، تحت دبابة العدو ليفجّرها ويُسقي شراب الشهادة»[٢٠].

لهذا نؤكد أن سماحة الإمام يطرح نظاماً تربوياً.. وإذا أجريت دراسة شاملة ومعمقة في مختلف المصادر التي تركها، أمكن الحصول على مبنى معتبر وقوي لنظام التعليم والتربية في المجتمع الإسلامي.

الهوامش

١. صحيفة نور، ج ١، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٣.
٢. صحيفة نور، ج ٢، ص ١٥٤.
٣. صحيفة نور، ج ٧، ص ٢٢٥.
٤. صحيفة نور، ج ١٣، ص ١٣٠.
٥. صحيفة نور، ج ١٤، ص ١٠٢.
٦. صحيفة نور، ج ٤، ص ٢٨.
٧. صحيفة نور، ج ٥، ص ٦٢.
٨. صحيفة نور، ج ٧، ص ١٧.
٩. نقطة عطف، ص ٣٩.
١٠. نقطة عطف، ص ١٩.
١١. الكلمات القصار، ص ٦٥.
١٢. الكلمات القصار، ص ٦٦.
١٣. الكلمات القصار، ص ٦٧.
١٤. الكلمات القصار، ص ٦٧.
١٥. المصدر نفسه.
١٦. نقطة عطف، ص ٢٥.
١٧. نقطة عطف، ص ٢٤.
١٨. صحيفة نور، ج ٩، ص ١٥٣.
١٩. الكلمات القصار، ص ٥٢.
٢٠. الكلمات القصار، ص ٦١.